الاربعينات وحتى أواخر السبعينات. ومع ان الدكتور زيادين في تدوينه لسيرته الذاتية يحاول أن يمسك بالأحداث العامة، فانه لا يصح، أن نحاكم هذا الكتاب كعمل تاريخي، يطلب منه أن لايغفل أياً من الاحداث التي عاشتها الحركة الوطنية الاردنية، في تلك الفترة. وهذه الملاحظة لا تنفي حقيقة أن الكتاب قد أغنى معارفنا في ما يتعلق ببدايات تشكّل الحركة الوطنية والماركسية في المجتمع الشرق أردني، والتي بلغت ذروة من النمو والتطور في أواسط الخمسينات. ولا بد من الملاحظة كذلك، انه رغم الصورة الحيّة التي نقلها الكتاب عن «تلك الايام» المريرة القاسية في الزنازين وفي أقبية السجون، فإن هذه الصورة تبقى بحاجة الى الكثير من الاضافات، التي لا بد أن يتصدى لها مناضلون آخرون. وهذا ينطبق على الصورة المكثفة السريعة التي رسمها الكاتب لتجربة معتقل الجفر الصحراوي، التي هي في الواقع اكثر ثراء واعمق أهمية مما نجده في كتاب زيادين. لقد إكتفى الكتاب بالتقاط ابرز ملامح هذه التجربة لمئات المناضلين القادمين من عشرات المدن والقرى الاردنية والفلسطينية، لكنه لم يرصد جوانب القوة وجوانب الضعف لمناضلين من مجتمعنا، وُضعوا في تلك التجربة الهامة، سيما وقد تساقط عدد كبير منهم، وإنصرف البعض عن جبن وعن يأس، بينما كانوا في قمة الحزب، في حين صمد منهم العشرات وتحملوا أعباء مسيرة بالغة المشقة.

والكتاب كذلك لا يتوقف كثيرا عند تجربة الجبهة الوطنية في الاردن في اواسط الخمسينات، ولا عند محاولات بناء الوحدة الوطنية، رغم انه يشير، كيف أن ضعف التلاحم بين القوى الوطنية، قد مكّن النظام من تحقيق انقلابه سنة ١٩٥٧. كما لا يتطرق الكتاب الى تجربة الاعداد لانتفاضة مسلحة شارك فيها الشيوعيون الى جانب الاحزاب والقوى الوطنية الاخرى سنة ١٩٥٧، في محاولة لاسقاط النظام، وانهيار تلك المحاولة التي انتقد الشيوعيون انفسهم فيما بعد على الدخول فيها، باعتبارها لم تاخذ الظروف الموضوعية في حسابها.

وهناك من يأخذ على مؤلف الكتاب، توقفه عند المعاناة الذاتية عقب خروجه من السجن، لكن معالجة الكتاب لهذه التجربة الذاتية، انما تعكس مسالة انسانية حضارية، تصور بُعداً آخر من المعاناة، التي يعيشها المرء في مجتمع تُعيب فيه ابسط اشكال الديمقراطية وتُجرى فيه المحاولات السوداء لسحق انسانيته.

وفي معرض تقييمنا للكتاب، نود الاشارة الى انه يثبّت في ذاكرة الاجيال من أسماء لمناضلين أشداء، كانوا رفاق درب، بعضهم قضى، وبعضهم ما زال يتقدم صفوف النضال. لكن الكتاب، بالمقابل، يسقط أسماء اولئك الذين انشقوا عن الحزب، فلا يشير الى مواقفهم قبل أن يضعفوا وقبل أن ينحرفوا. ولعل هناك من يطرح السؤال: لماذا لم يحاول الكتاب أن يتلمس اسباب الانحراف لاولئك الناس الذين كانوا في مواقع متقدمة في صفوف الشيوعيين طيلة سنوات طويلة، سيما وأن الحزب قد عالج جذور الانحراف اليميني لهم وحللها تحليلا علميا.

وأخيرا وقبل عرضنا لمادة الكتاب، نود أن نؤكد، ان هذا الكتاب الذي يقع في ١٨٠ صفحة، يحتوي في الواقع على مادة بالغة الثراء، لذلك فسوف يقتصر عرضنا له على التقاط ابرز ما تحويه فصوله. ويمكن تقسيم الكتاب الى المراحل التالية:

أيام الطفولة وسنيّ الدراسة في الكرك والسلط ثم في دمشق وبيروت حيث اكتمل وعي المؤلف وتشكلت ملامح شخصيته السياسية، ثم بدء الحياة العملية لزيادين كطبيب، وحياة النضال في صفوف الحزب الشيوعي الاردني في القدس وذلك منذ سنة ١٩٥٠ وحتى اوائل سنة ١٩٥٧، حيث تحول الكاتب الى شخصية جماهيرية عبر كفاحه الدؤوب وتعرضه للسجن مرات عديدة، مما أدى الى انتخابه نائبا في البرلمان عن القدس. والمرحلة الثالثة هي مرحلة المطاردة والاختفاء بعد الانقلاب الرجعي الذي استمرت بضعة شهور وانتهت بالاعتقال والانتقال الى الجفر. أما حياة السجن التي استمرت ثمانية اعوام فقد كانت من نوعين، حياة معتقل الجفر، حيث يملك السجين السياسي بعض المتسع من الوقت لترتيب امور الداخلية، والاخرى حياة الزنازين والتحقيق التي يفقد فيها السجين أبسط الشروط التي تمكنه من مجرد